المادة: السرد السير ذاتي.

الفئة المستهدفة: سنة ثانية ماستر (تخصص أدب حديث ومعاصر).

المحاضرة7: الهوية السردية والسيرة الذاتية وتجلياتها

أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على الهوية السردية وتجلياتها في السيرة الذاتية.

1-مفهوم الهوية السردية في السيرة الذاتية:

"يعود الفضل في تحليل العلاقة العضوية الكائنة بين مشروع الكتابة السير ذاتية ومبدأ الهوية تحليلا نقديا دقيقا إلى فليب لوجون فهو الذي أجلى مفهوم التعاقد السير ذاتي معتبرا إياه نمطا من أنماط القراءة التي تتأسس على الربط بين هوية الشخصية داخل النص وشخصية الكاتب الواقعية التي يحيل عليها اسم العلم في الواقع الخارجي ورغم قيمة هذه المساهمة فهي لا تخلو في نظرنا من إشكاليات تدعو إلى مراجعة تفاصيلها كما أنها تستدعي إلى ذلك مزيد من التعمق في تحليل مفهوم الهوية السير ذاتية في علاقتها ببنية الملفوظ أو الخطاب السير ذاتي من ناحية، وبنية الوعي الفردية أو ما عبر عنه لوجون بتاريخ الشخصية من ناحية أخرى"[1].

ولعل مبدأ الهوية في نظرية لوجون نجده يحيل "على فرضيتين أساسيتين: تتعلق أولاهما بأن هذا المبدأ هو الذي يحقق أصالة التلفظ السير ذاتية، ويحيل عليها العقد أو الميثاق، فعن طريق الربط بين الذات المتلفظة في السرد واسم العلم، يتبوأ الملفوظ السير ذاتي قيمة مرجعية لا ريب فيها من شأنها أن تدرجه ضمن قائمة ما أسميناه بالملفوظات الواقعية بما فيها الملفوظ الواقعي التاريخي، وعلى هذا النحو يتحقق انفتاح السيرة الذاتية على العالم

الخارجي من حيث أنها فعل تلفظي أصيل، يهدف مبدئيا إلى إعادة تشكيل تجربة واقعية كما أنها تنفصل في الوقت نفسه عن كل أشكال التلفظ التخيلية، لذلك فإن أصالة التلفظ تمثل قيمة أجناسية خلافية، أما الفرضية الثانية فتتعلق بالتأكيد على ترابط الهويات الثلاث الراوي الشخصية والكاتب في الملفوظ السير ذاتي ومعنى ذلك أن الذات المتلفظة بالإضافة إلى واقعيتها هي في الوقت ذاته فاعلة أو ناظرة أو مفعول بها ومنظور إليها، لأنها تشكل الموضوع الرئيس للتلفظ"[2]، على أن "هذا الترابط ليس ضروريا في كل الملفوظات الواقعية كما هو الشأن في السيرة مثلا أو في الملفوظ السردي التاريخي، ولكنه ضروري فيما أسماه لوجون بدائرة الأدب الذاتي الأجناسية، وعلى ذلك فهو يشكل قيمة أجناسية خلافية داخلية لأنه يميز بين مختلف الأجناس الواقعية في دائرة ما أسميناه بالملفوظات الواقعية أوالمرجعية"[3].

يشكل التطابق بين الهويات الثلاث عنصرا مهما يتم من خلاله توحيد "مختلف الأجناس المكونة لدائرة أدب الذات ويحكم الربط بينها جميعا ولكنه لا يفسر لنا وحدة خصوصية السيرة الذاتية ولا المغزى من ارتباطها في مستوى موضوعها العميق بقضية اسم العلم، خاصة وأن اسم العلم هو الذي يكتسي القيمة الخلافية أو التمييزية التي من شأنها أن تبرز الحدود والفواصل التي تباعد ما بين السيرة الذاتية والأجناس القريبة منها كاليوميات والمذكرات خاصة"[4].

لعل "مبدأ الهوية، لا يرتبط بقضية اسم العلم في نظرية لوجون إلا ارتباطا شكليا أو خارجيا، لأن مبرره العميق هو البرهنة على واقعية التلفظ الذي يشرع لقراءة السيرة الذاتية قراءة مرجعية مفرغة من محتواها، لا فضل لها سوى تمييزها تمييزا سطحيا عن قراءة المتخيل الأدبي وتأويله ولكنها لا تتعدى أبدا إلى القول بمرجعية الملفوظ بمعنى قدرته على تجسيد حقيقة تاريخية تستمد من واقعيته التلفظية وتحيل على شخصية المترجم لذاته الحقيقية"[5].

2-بنية الهوية وبنية السرد:

"لئن كانت اللغة هي الباعث الأساسي على بناء الهوية، والكتابة طريقة في إثباتها، فإن بنية الهوية متوقفة في مستوى تشكلها على بنية الكلام ملتبسة بالأشكال التي تظهر فيها، وأهمها الشكل السردي الذي يضفي على الحياة الواقعية شكل الحياة القصصية، إن آليات التشكل السردية، قوامها الجمع بين تتابع الأحداث خطيا والتأليف بينها في بنية مهيبة لامتصاص تنافرها في وحدة معنوية متكاملة، وهو ما أسماه **ريكور** بظاهرة التأليف بين الظواهر غير المتجانسة يمكن اعتبارها بمثابة الأنموذج الصوري، الذي يمثل إحدى أهم الصور التي يتشكل فيها الكلام عن الذات ليعبر عن تجربة لها خصوصياتها وشروطها، وفي اعتقادنا أن هذا الأنموذج السردي هو أكثر النماذج الكلامية المتوفرة قدرة على تجسيد مفهوم الهوية السردية وبنائها كما تتجلى في السير الذاتية التي يحرص أصحابها على منح هوياتهم شكلا متماسكا معقولا"[6]؛ أي أن الرواية والسيرة الذاتية يشكلان نموذجا سرديا يمنحان للكاتب القدرة على تجسيد ذاته وهويته.

إن الهوية السردية تعني "تشكل الهوية الفردية في بنية سردية، فلا سبيل إلى إدراكه أوانتاجه خارجها، ولأن الهوية الفردية بالمعنى السيكولوجي العميق هي وجود ممتلئ بالقوة أي وجود حيوي متجدد يضطرب بشتى الأفكار والمشاعر وفق ما يحدث في تاريخ الشخصية من كبار الحوادث أو صغارها ويتجه باستمرار إلى استعادة توازنه المعرض إلى الانهيار، فإن أنسب الأشكال الكلامية محاكاة وموافقة في التعبير عن هذا الوجود المتراوح بين التقلب والاستقرار هو الشكل السردي الروائي لما له من قدرة على الايحاء بتاريخية الحياة الخاصة، في مستوى عرضه المتتابع للأحداث وكفاءته في جعلها تأتلف في رؤية نسقية موحدة لولاها لما أمكن التعبير عن كثافة الحياة الباطنة في رؤية مؤتلفة واضحة، هذه الرؤية هي خلاصة حلول الواقع الذاتي وتشكله في الواقع اللغوي السردي وهو ما عبر عنه بمفهوم الهوية السردية، وفي هذا المستوى تتجلى فيما نعتقد علاقة الملفوظ السير ذاتي بالمتخيل الأدبي، الذي لا يمحض هنا للدلالة على الكذب أو الاختلاف وإنما ننظر إليه على أنه الشكل الذي

تتحقق فيه الهوية الذاتية لتتجلى لذاتها وللآخر وترتقي إلى مستوى الصورة الحسية المدركة"[7].

من هنا تتضح لنا عدة نتائج أهمها: "أولاها أن الشكل الروائي السردي، هو أحد الأشكال الممكنة التي مارسها بالفعل المترجمون لذواتهم لبناء هوياتهم السردية، وقد كان بلا منازع أول هذه الأشكال المتبناة في تاريخ السيرة الذاتية...إذا افترضنا أن كل السير الذاتية تهدف إلى بناء الهوية الفردية من خلال تعاطي الكتابة، وإذا أضفنا إلى هذه الفرضية أن التعبير عن هذه الهوية مرتبط بصور تشكلها في بنية الخطاب وأسلوبه انتهينا إلى أن المشاريع السير ذاتية قادرة أن تشكل من أنماط الهويات السردية وعددها بما يتناسب وأنماط البنى الكلامية والأساليب التي بإمكانها أن تتجسد فيها"[8]؛ ويمكن من خلال "هذا المنظور أن ننشئ تاريخا للسيرة الذاتية تتجلى لنا من خلاله، مفاهيم نوعية للهويات السردية وتصوراتها التاريخية، تدرس من خلال البنى الكلامية التي تشكلت فيها"[9]، وهو ما "يصلنا بالضرورة بشيئين: أولا دراسة تعالق الأشكال في إحالتها على مبدأ الهوية الفردية في السيرة الذاتية. ثانيا علاقة صور الهويات السردية الأدبية بالاتجاهات الجمالية السائدة في مجال الأدب وكذلك بقضايا المجتمع الفكرية والتاريخية باعتبارها تفسر إلى حد كبير تعاقب هذه الصور. أما الملاحظة الثانية، فتتعلق بخصوصية الفعل التخييلي السير ذاتي الذي يؤسس خلافا للمتخيل الأدبي الصرف لمرجعية واقعية ذاتية تدل على معنى الحياة الخاصة دلالة مباشرة في حين أن المتخيل الروائي لا ينتقل إلى الدلالة على الواقع إلا بفعل التأويل وربط الرموز النصية بسياقات خارجية هي غير السياقات النصية الأصلية فالظاهر أننا ننتقل بفعل المتخيل في السيرة الذاتية من الواقع الحقيقي الذي هو واقع مشتت وغير قابل لتجربة الادراك الموحد إلى حقيقة الواقع، وبمعنى آخر فإن الهوية السردية في الملفوظ السير ذاتي تعبر عن نقلة نوعية يتم العبور بواسطتها من الحياة الحقيقية إلى حقيقة الحياة كما يشعر بها ويجتهد في إدراكها المترجم لذاته في حاضر التدوين"[10].

تعد "الهوية السردية شهادة من الذات على ذاتها تؤول إلى صور متعالية عن الزمن تثبت بفعل الكتابة فكأنها آخر تمثال ينحته المترجم لذاته قبل أن يرتحل نهائيا عن هذا العالم خاصة وأنه ينتجه عادة في مرحلة من العمر لا يعتقد أنه سيضيف فيها جديدا يذكر إلى تجاربه ورؤاه في الحياة، التي أمضى من الوقت ما يكفي لاختيارها على مدى الفترة التي عاشها، الشئ الذي يعني أن بناء الهوية السردية يستند إلى شيئين: الأول هو تحقيق فرع من الاكتمال أو النضج، يخولان للمترجم لذاته بفعل المسافة الزمنية الفاصلة بين ماضي الحياة وزمن تدوينها أن يقف من ذاته موقف المؤرخ من الموضوع الذي يؤرخ له مستفيدا في اكتشاف حقيقة ذاته من المنظور الارتجاعي، أما الشرط الثاني فنراه متوقفا على ضرورة التسليم بوجود ثوابت شعورية وفكرية في حياتنا الفردية فتتلاحق التجارب العديدة التي نخوضها لتأكيدها والبرهنة على رسوخها، ويؤدي ذلك إلى القول بأن التجارب تبلو الإنسان في اتجاهين: فهي تبين عما هو ثابت في طبيعته أو جبلته وتكشف عما هو متغير قلب أي قابل للتبدل والانقلاب إذا ما توفرت الشروط المساعدة على ذلك"[11]؛ هذا يعني "أن الهوية السردية هي في الآن ذاته كشف عن الأنا من حيث أنها فعل استبطاني كلامي ولكن ما لا يقل أهمية عن ذلك أنها ترسيخ لصورة عن الأنا يضطلع الخطاب ببنائها ويعمل على تكرسيها، مما يدل على أن الواقع اللغوي هو واقع فعال ومؤثر في بناء الإحساس بالذات وتشكيله في مرآة الوعي الذاتية لذلك فالهوية السير ذاتية يمكنها أن تتحول بعد إنتاجها إلى الصورة الأم أو المرجعية الأصل المعرفة باسم العلم والتي يشكل من خلالها المترجم لذاته علاقاته الحميمة مع ذاته والعالم بأسره"[12].

-آليات بناء الهوية السردية في المدونة العربية:

إن موضوع السيرة الذاتية الأساسي يكمن في "بناء الهوية الفردية وبلورتها، ولما كان هذا البناء لا يتم إنتاجه إلا داخل الخطاب، بوصفه النسيج السردي الذي تتشكل فيه صورة الحياة المروية، فإن الهوية السير ذاتية هي بالضرورة هوية سردية، لا تستقيم في شكلها

الكلامي مكتملة المعالم والسمات إلا من خلال إخضاع وقائع الحياة المعيشة بمختلف أنواعها سواء كانت اجتماعية أو فكرية أو انفعالية شعورية إلى رؤية تنظيمية جديدة، تزامن فعل الكتابة وتوجهه وتمثل هذه الرؤية في واقع الأمر مقاربة ذاتية مخصوصة، خاضعة لضوابط يمكن الإحاطة بها ووصفها"[13]، ويمكن حصر أهم "آليات انتاج المترجمين لذواتهم العرب لهوياتهم النصية في ثلاث استراتيجيات أساسية اشتركوا جميعا في تبنيها، أولاها مراجعة أحداث الحياة الماضية، مراجعة نقدية، ثانيها انصراف جميع المترجمين لذواتهم إلى تحديث أفقهم المرجعي وتوسيعه بواسطة الانفتاح على مرجعيات معرفية وثقافية عصرية متطورة، كانت تمثل بالنسبة إليهم فضاءات ايديولوجية مستقبلية تغريهم، ثالثا التموقع في زمن مستقبلي تطوق ذواتهم الطامحة إلى الكمال إلى التحقق فيه، والاضطلاع بوضع لبناته الأولى"[14].

من خلال ماسبق نستنتج أن السيرة الذاتية تعد شكلا سرديا منح المؤلف القدرة على تعبير عن ذاته وتجاربه ونقلها إلى الآخرين، بالإضافة إلى قدرتها على التعبير عن الهوية الفردية التي تشكل أنا الكاتب.

الهوامش:

---

[1]– جليلة الطريطر، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بحث في المرجعيات)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004، ص: 235–236.

[2]–المرجع نفسه، ص : 236.

[3]–المرجع نفسه، ص : 237.

[4]–المرجع نفسه، ص: 237.

[5]–المرجع نفسه، ص: 237.

[6]–المرجع نفسه، ص: 243–244.

[7]–المرجع نفسه، ص: 244.

[8]–المرجع نفسه، ص: 244–245.

[9]– المرجع نفسه، ص: 245.

[10]– المرجع نفسه، ص: 245–246.

[11]– المرجع نفسه، ص: 247.

[12]– المرجع نفسه، ص: 248.

[13]– المرجع نفسه، ص: 512.

[14]– المرجع نفسه، ص: 512–513.